تكلم جبر ضومط

Un écrivain monomane.

كنا قد كتبنا مقالة في المقتطف في جزء شباط (فبراير) من هذه السنة موضوعها « اداة التعريف في التاريخ » فلم يستحسنها حضرة الاستاذ جبر ضومط فكتب رأيه في مقتطف يوليو (تموز) مبينا خطأنا في نظره . ولما وقفنا عليها وجدناها من نسيج ما حاكه في هذه السنين الثلاث من المذاهب اللغوية ونشره في مجلات سورية ومصر . اي انه حبر مقالات ليقال عنه « تكلم الاستاذ جبر ضومط » . اما ان هناك آراء معقولة وادلة منطقية معقولة فلا اثر له وما كنا نود ان نجيب عنها لجمودها بل لقلة امورها : اذ انها واهية الاركان من جهاتها الاربع لولا ان احد القراء علينا الح علي ان نقول كلامنا الاخير في صدد ما يكتبه حضرة « خصمنا » فنقول :

ان صديقنا لا يكتب ما يكتب توخيا للحقيقة ، بل يحبر مقالاته ليقال عنه « تكلم » ولا يهمه ان يكون ذيالك الكلام صحيحا او خطأ . اذ غايته الكلام لا غير كما قلنا انفا .

واول شيء نأخذه عليه انه لم يهتد حتى الآن الى كتابة اسمنا الذي هو انستاس لا « انسطاس » لاننا هكذا اخترنا ان يكون لا غير كما اخترسمو .

٢ــ لا يرى في كلامنا « بلاغة » ولم نفهم ما يريد بهذه الكلمة والعاقل لا ينطق بكلمة إلّا يؤيدها بالدليل . وكلامه هذا بلا دليل .

٣ــ من غريب ما كتبه في رده هذا انه لم يفهم معنى « الخصم » فقد ظن ان معناه « العدو » ولهذا قال :

« ولكننا نكر عليه ان يحسب من يناقشه آراءه خصما له . نعم ان بعض من يردون علينا اقوالنا يردونها لانهم اخصامنا ولكن بعضهم قد يكونون من احب احبائنا واخلص اصدقائنا . . . » وهذا كلام واضح على ان حضرته لم يفهم حتى الآن ما يراد بالخصم فالخصم يا سيدي قد يكون « عدوا » وقد يكون « احب احبائنا واخلص اصدقائنا » فما عليك إلّا ان تراجع اي كتاب لغوي

شئت لتتحقق ان «الخصم» هو المجاول لا غير بغض النظر عن صداقته او عداوته لك . فلو رجعت الى كتاب صديقنا صاحب « البستان » لثبت لك الامر . هذا ان لم يكن بين يديك معجم آخر . اذن سقطت جميع اوهامك فينا اذ ليس هناك استشفاق يراي من مخالفنا ولا اعتداد بعلمنا دون علم غيرنا .

٤ — يعارضنا حضرته في ان (ها) التعريف مقتطعة من فعل الوجود العبري وهو « هوَ يهوَ » بحجة ان الاقدمين لم يقولوا بقولنا كما لم يذهب اليه احد من المستشرقين . فيا له من كلام يزري بالجمان ! فلو كان لمثل هذه الادلة قوة لما اشتغل احد بأي امر ولما كان رقي هذا العصر . فيا حضرة الاستاذ ان المسألة مسألة اجتهاد . ولا ينظر فيها أكان الاقدمون قالوا بها او لم يوافقوا عليها . وعقلاء عهدنا هذا يأخذون بما يقبله العقل من الحجج والبراهين لا ما تحتقره او لا تقنع به . فقد مضى زمان هذا الرأي القطير مع اصحابه والنازعين اليه . فكيف تقول بحياتي الان؟

— ذكر لنا حضرته مذهبي القوريين ، مذهب التوقيف ومذهب الاصطلاح اي مذهب النشوء والارتقاء في وضع الالفاظ وهو امر قد اكل عليه الدهر وشرب (١) والذي لم يحسن ايراده انه جهل ان هذين المذهبين قد يعودان الى مذهب واحد اي الى ان الواضع الاول للالفاظ قد وقف على اسرار الطبيعة فوضع لها الكلم جريا على محاكاة ما فيها لا على ما يعن له من الكلم التي تخالف اوضاع محاكاتها فلا جرم ان الاسماء سابقة للافعال في المعنى والوجود لكن ليس في هذا السبق مئات او الوف من السنين بل « سبق معنوي » لا غير ولهذا اصبح ما بنيته من القصور والعلالي اوهى من خيط العنكبوت .

٦ — رجح حضرته اننا اطلعنا على كتاب محاضرات العلامة جويدي وانا اقتبسنا منه رأيه في اصل الهمزة . ويعلم الله انا لم نقتن هذا الكتاب ولم نطالعه والاستاذ كثير الظنون الواهية المعتمد . وكان ايضا قد نسب الينا انا طالعنا مقالاته في اصل « الخليفة وقريش والاديب » ردا علينا مع انا لم نطالعها حتى بعد ان اشار الى ورودها في المقتطف ، ما خلا مقاله الاخير الذي ادرجه في

(١) راجع المزهر السيوطي ١ : ١٢ الى ١٥ من طبعة بولاق الاولى .

الهلال وبنا فساد اولئك ووهنها في مقتطف يوليو (تموز)»

٧ــ كلما تصفحنا صفحة مما دونه في المقتطف رأينا قيد فسادا جديدا خاصا به دون غيره مما يدل على ان قواه العقلية متروكة لجهده اياها حين كان معلما في الكلية السورية . فقد قال مثلا في ص ٢٠٥ « وحروف الفة ثلاثة اللام والميم والنون . ومعنى الوقف عليها انا نقلب حرف المد الى حرف غنة » أفهذا كلام ينبغي بي ما يقول او قد وقف على مصطلح السلف ؟ مع ان الكل يعلم ان لين اللام دخل في حروف الفنة التي هي : التنوين والنون والميم (راجع ص٢٩٩ من شرح العلامة ابن القاصح على الشاطبية المسمى بسراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي او اغرب من قوله هذا قوله الاخر وهو تحديده لمعنى الوقف انه « قلب حرف المد الى حرف غنة » فاذا كانت هذه بضاعته من العلم فكيف يريد ان نحاوله وكيف درس في الكلية تلك المدة الطويلة وكيف يجرؤ على ان يكتب ما يكتب قبل ان يتثبت في ما تخطه انامله ؟ ولهذا نطلب منه العذر في اننا لا نعود الى الرد على ما يوجهه الينا لاننا نراه يخالف المحققين من الاقدمين والمحدثين في الامور الثابتة لكي يقبل عذره « تكلم الاستاذ جبر ضومط » ونحن نرى ان سكوتنا اشرف لنا واستر لخفاياه ومعايبه . اما اذا كان قد عرف الحقائق سابقا وقدسيها الان فهذا امر آخر .

٨ــ ومن قبيل هــذا الجهل اعتباره لقول العوام « هل بحر وهل كتاب » بمعنى « الى بحر والى كتاب » وهذا سخف في المدارك بما وراءه سخف لانه ليس من يجهل اليوم ان معنى قولهم « هل بحر وهل كتاب » هذا البحر وهذا الكتاب » فكيف يريد ان ينكر امورا تفقأ في العين حصرما ؟ ثم زاد على ذلك سخفا آخر وهو قوله : « فوقف المصريون على اللام ووقفت حمير على الميم . وخففت الهاء الى (؟ كذا) الهمزة ولكنها بقيت على الالسنة لحد هذه الساعة عند كثيرين ومن جملتهم فيما ارجح الاب انسطاس (كذا) وان لم يخطئ لذلك من لم يقل منا (كذا) : « اعطني هل كتاب » ... الخ الى آخر ما خلط وخبط مع اننا ان كنا نقول كما يقول الغير « اعطني هل كتاب » نريد : « اعطني هذا الكتــاب » لا « اعطني الكتاب » . وبين المعنيين فرق كالفرق الذي بين الثرى

والثريا وقولهم « اعطني هل كتاب » تخفيف واضح الكلام المألوف اعطني هذا الكتاب وهو اشهر من ان يؤول . فكيف خفي عليه وهو خلال المضلات ؟ !

٩ــ اننا في عجب مما يكتب حضرة الصديق . فبينما نراه يقول عنا في اول مقاله (ص٢٠٢) : « ولو ان الاب المحترم عدل من حدته فيمن (كذا) تصوره يرد عليه بعض ما جاء في مقالته هذه النفيسة في موضوعها لكان اجدر بعلمه وفضله ومكانته الادبية الرفيعة بل كان اجدر بفضله لو استغنى عن هذه الخاتمة بما جاء بعد في مقدمة المقالة مما يقع في اسماعنا وقلوبنا موقعا خليقا بعلم الادب وفضله ... » نجده يقول في ص ٢٠٦ : « واعذرني اذا قلت هذا التخبط الذي توصلت به الى اكتشافك (؟) الغريب الذي صرحت انه لم يسبقك اليه احد ونحن نسلم لك بحق هذه السابقية ونعتقد انك ستبقى فيها سابقا ومبتكرا مما ... ولكن ماهو الرابط بين ما كنت فيه وبين ما وثبت اليه في هذه التروسة (؟ كذا) اه

فلنا : كنا نود ان نجلو بك من كلامك هذا لكننا لا نفهم كيف تمدح في بدء مقالك شخصا وحين تبلغ الى وسطه تنسى كلامك فتقول : التخبط والتروسة وغيرهما من الالفاظ . فكان الاحرى بك يا سيدي ان لا تستعد بنعوت العظمة في اول كلامك لكي يتسهل لك ان تفرغ عليه من هراتك ما افرغت او ما شئت ونحن نسلم ان الخصم او المجادل يتخذ الادب وسيلة له لا ما الفه من عبارات الهزء والشتيمة التي هي سلاح كل عاجز عن الاتيان بالدليل المقنع . ولو اجلت طرفك قليلا في ما كتبناه وازلت السخيمة من صدرك لوجدت الرابط بين ما كنا فيه وبين ما وثبنا اليه من « التروسة » التي لا تفهم معناها ولم نجدها في كلام بليغ عاقل مما لم نجد كثيرا من مصطلحاتك كتمعن (ص٢٠٤) وعلماء الفرنساويين (فيها ايضا) ولم تكتفي ص ٢٠٧ (كذا وانت تخاطب مذكرا) الى غير ذلك من التعابير المكسرة التي لا ترد على قلم اديب يحترم نفسه او يضعها في منزلة الكتاب والمؤلفين .

١٠ــ اثبتنا بادلة تاريخية ولغوية ان الهمزة اداة التعريف ضمنا نشأت بعد الهاء . وقلنا انه كان في لساننا ايضا التاء والتاء من ادوات التعريف في سابق العهد وعللنا لذلك الفاظا مستشهدين كلام الائمة وكان على « الخصم » ان يفند تلك

الآراء جزءا فجزءا بدليل بعد دليل ليتبين فضله ويظهر علمه فتتجلى الحقيقة فاذا بصاحبنا يذكر عناوين فصولنا ويسخو عبارته هراء وخرفا ولا تكاد تستخلص منهما شيئا يذكر . فيقول مثلا ص٢٠٨ : « لا ايها الكاتب العلامة ليس العربية هي التي هتكت استار هذه الاسرار [قلنا : هذه عبارته ولم نغير منها حرفا فمن اراد ان يفهم فليفهم] بل انت الذي هتكتها . وهنا اقول [هذا كلام الاستاذ جبر ضومط] اني استغربت منك انك اكتشفت ان التاءات الزائدة في تمساح وترمس وتنضب وتفرج وترنموت هي اداة التعريف وغفلت عن ان تحسب الياءات الزائدة في يربوع ويعفور ويعبوب ويرقود ويعسوب الخ اداة تعريف مع ان ردها جميعها الى ثلاث الاداة « اي الى الياء] اسهل على الذهن واقرب الى القبول من رد تاء تمساح وترمس وتاء ترمة » انتهى كلام المخصم .

افهذا كلام رجل متمتع بصحيح قوى عقلية ؟ افليس الاحسن له ان يكسر قلمه ويلقيه في النار فيصون بذلك عرضه وسمعته وثمالة عقله وعلمه ولا ينطق بمثل هذه السفاسف التي ليس فيها إلا المهاترة والمعاندة وحب الهزء من الناس والنيل منهم عوضا من ان يأتي بالبرهان السديد لينقض ادلتنا بادلته فيصدق ان يقال عنه : نقض ادلة بادلة ؟ لكن اعلم يا صاح ان اربعة من العلماء الراسخي القدم في اللغة والنقد كتبوا الينا يمدحوننا على ما بيناه ويشكروننا على ما سلكناه من ادوات التعريف ثم يقول احدهم وهو من المستشرقين الالمان « قد سبقكم الى اعتبار التاء في تمساح ونحوها من الالفاظ اداة تعريف وقد اخذها العرب من المصريين القدماء فهي عندهم اداة تعريف المؤنث كما ان الياء في مثل باميا، ويطيخ وبطارخ وبطليوس اداة تعريف المذكر عندهم ايضا وقد نقلها العرب عنهم بلفظها وباداة تعريفها معا . الخ . فهذا كلام رجل عاقل محقق لا ما يحكيه جبر ضومط عن موجدة وضغينة ملفقا اقوالا تشبه تلفيق « الخنفشار » اذ مقاله كله على هذا القياس من الخبط والخلط والهذر والخرف والهراء حتى انه لا يمكنك ان تجمع شتاته لتردده الى فكر معقول . فالكلام الموزون بميزان الفطنة والاسلوب المؤدب الذي يجري عليه اهل النقد . كل هذا وما اشبهه بعيد عنه لانه متنزه عن نفسه ومن آرائه ولا يريد ان يرى

بيانيه من يعنى بأسرار اللغة . فلله دره من محقق !

١١ــ من غريب اعمال «الخصم» انه اذا رأى مذهبا في لغة ينسب الى غير المستشرقين لم يقبله فيقول : « اسأل المختص وجدت احدا من المشتغلين بمثل بحثك بين علماء الفرنساويين [هكذا ينسب الى فرنسة او فرنسا] او الانكليز او الالمان او الايطاليان [كذا ينسب الى ايطالية او ايطاليا] يقول بقولك هذا ؟ » (ص ٢٠٤) اما هو . فاذا جاءنا برأي من عنده لا يريد منه ان نذكره بسؤاله هذا فانك تراه يقول مثلا بعد نقل رقيم امرئ القيس : « لي رأيي الخاص [انا الرجل العبقري] في قراءة اللفظة التي صورها العلامة جويدي هكذا (فراس) واليك هو ... » فيا حضرة الاستاذ النجيب والعبقري الداهية والباقعة الفريد دعنا نسألك : « هل وجدت احدا من المشتغلين ... الى آخر ماقلت .

الختام : ان الرجل لايكتب عن نية صافية فهو يبوح بما فيها من السيئات في كل عبارة ينطق بها او يكتبها فقد نقل مثلا ما كنا اخرجناه في المقتطف ماخوذا من جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » (ص ٢٠٢ و ٢٠٣) ولم نزد عليه حرفا . فقال حضرته ما هذا نقله « يظهر ايها الكاتبان قراءة جويدي لا تتفق مع قراءتك في ادخال اللام على (فرس) وتكتبها (فراس) ومن الفعل (وكلهم) اي جعلهم قبلها يظهر ان اللام في (الروم) هي حرف الجر المعروف لا اداة التعريف والذي اراه انا العلامة الذي لا يشق له غبار وانا انا من عرفاني يفوق كل عرفان بشري] ١ــ ان قراءة العلامة جويدي أتم من قراءتك واخلص من شائبة الغرض الظاهرة اظلالها في قراءتك او نقلك (كذا بحروفه) ... » اه . أفرأيتم ايها القراء كيف ان هذا الرجل يسيء بي الظن وكيف انه يبوح بما في صدره من السخيمة والحقد وتسويد كل امر افر آتيه ؟ فلعن الله الغايات وما اسوأ نتائجها اذا داخلت صدور حملة العلم !

ان الرقيم الذي نقلنا صورته ماخوذ بحرفه عن كتاب جرجي زيدان في الموطن الذي ذكرناه آنفا . فما معنى هذه التقولات التي يتقولها علينا وما معنى هذه الافتراءات المتلونة ؟ فانا لله وانا اليه راجعون . ولنتركه في شأنه يتخبطه وخزات ضميره قائلين : سكت الفا ونطق خلفا او خرفا « هداه الله الى سواء السبيل . وهذا آخر كلامنا لهذا الصديق .